دولة بني النجاح في اليمن (٤١٢-٥٥٤هـ/١٠٢١-١١٥٩م) دراسة تاريخية

م.د.سناء عبدالله عزيز الطائي

م.د.ساجد عبد محمد

كلية التربية للعلوم الإنسانية – جامعة الموصل

الملخص

شهدت اليمن خلال المراحل التاريخية المختلفة، ولادة وسقوط دول عديدة، وكان القانون الأساس الذي ينطبق على تاريخ اليمن، هو أن تاريخ اليمن كله ما هو إلا تاريخ النضال من أجل اقامة دولة مستقلة وموحدة[1]. وقد كان لكل الدول اليمنية دور بارز في الحفاظ على الشخصية الحضارية العربية، ومن الدول التي تأسست في اليمن، دولة بني نجاح وقد امتد تاريخها إلى أكثر من قرن ونصف انحصرت بين سنتي (٤١٢-٥٥٤هـ/١٠٢١-١١٥٩م) وتعاقب على قيادة هذه الدولة حكام عديدون عرفوا بـ (الملوك)، وكانت لهم أعمالهم المتميزة، وخاصة في مجال توحيد اليمن، ومواجهة التحديات في تلك المرحلة المضطربة من التاريخ العربي الاسلامي، هذا فضلاً عن الدور الكبير الذي قام به بعض ملوك هذه الدولة في مجال خدمة الدولة العربية الاسلامية في جميع المجالات. ولفهم حقيقة دور بني نجاح ودورهم في اليمن واسهاماتها انصرف هذا البحث إلى متابعة ظروف قيام وتتبع دور الملوك حتى سقوط الدولة النجاحية. وذلك ضمن السياق التاريخي العام للدولة العربية الاسلامية أبان حكم العباسيين وعاصمتهم بغداد (١٣٢-٦٥٦هـ/٧٤٩-١٢٥٨م).

الكلمات المفتاحية: بني نجاح ، الصراع ، الصليحي ، جياش ، زبيد

The Rise and Fall of Bani Najah State In Yemen 412 - 554 H. / 1021 - 459 A.D.

Dr. Sana Abdullah Aziz Al-Taei

Dr. Sajid Abdel Mohamed

College of Education for Human Sciences - University of Mosul

Abstract

Yeman has Wmessed during the various stages of history the emergence and the fall of many states. The main law that may be applied upon the history of Yemen is that it is the history full of struggle to establish an independent unified state. For each state, there is a Significant role in keeping the Arab Civilized character. One of the states That Has been established in Yemen is Bani . Najah state. Its history has extended to moree Tham one and ahalf century (412 - 554H. /1021 - 1159 A..D) This state has been ruled by so many rulers known by (kings), They have distinguished deeds particulardy in the field of unifying Yemen, and facing chllenges in that confused period of Arab Islamic history . In addition, there is the great role done by some Kings of that state in the fild serving Arab Islamic culture. Inorder to understand the Fact of Bani Najah State in Yemen , this paper Searchs in the Circumstances of establishing and falling the state putting all this in the general historic Context of the Arab Islamic State during the Abbasid Chaliphates in their Capital Bagdad 132 - 656 H./ 749 - 1258 A. D.

ظروف نشأة دولة بني نجاح:

واجهت الدولة العربية الاسلامية في عهد حكم العباسيين، متغيرات سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وثقافية واسعة ولعل من أبرزها السعي لاستكمال تكوين الأمة العربية، وإشراك غير العرب في السلطة، وفي الجيش[٢]، ويذكر المؤرخ عبد العزيز الدوري[٣]، أنه نتيجة طبيعية للتحول الاجتماعي والاقتصادي، ولتأكد الحياة المدنية، وقد اتجه العرب، نحو الفعاليات الاقتصادية، خاصة بعد أن ابتعدوا عن الجيش ومؤسساته وأدى ذلك إلى توحد المصالح الاقتصادية، وإلى انتشار العرب فيها واتضح ذلك منذ القرنين الثاني والثالث الهجريين (الثامن والتاسع الميلاديين). ورافق هذا التطور توسع المدن بشكل ملفت للنظر، وبروز دور العامة من الناس في حياة المدن وظهور تنظيمات حرفية.

ومع بقاء أهمية (النسب) لدى الكثيرين في الحياة الاجتماعية، فقد أصبح دور (المال) أساسياً، بل وصارت الفوارق المالية أساس تكتلات وحركات اجتماعية. وكلما كان المجتمع العربي الاسلامي يتوغل في الحضارة، ويتوسع في التجارة، كان دور النسب في الحياة العامة يتضاءل. كما أن سيطرة الجند، ومعظمهم من غير العرب، قادته نحو تعثر التجربة السياسية، فاتجهت من نوع من الشورى إلى الاستناد إلى شيوخ القبائل وتطلعهم نحو السلطة، وحين تراجع السلطان العربي، ابتداءً من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، نتيجة تخلي العباسيين عن القبائل العربية كأساس وحيد للجيش، والاعتماد على جيش نظامي مختلط، بدأت التجزئة، وتعرضت الدولة العربية الاسلامية إلى خطر الانقسام، حين ضغطت السلطة المركزية في بغداد وسيطر الجند على مقدرات الحياة السياسية، فأخذت كثير من أقاليم الدولة تنفصل لتقيم كيانات سياسية مستقلة أو شبه مستقلة عن مركز الخلافة ببغداد، ولم تشذ اليمن عن ذلك، إذ ظهرت فيها دول عديدة استقل بعضها فعلياً واستقل البعض الآخر اسمياً[٤].

في عهد الخليفة (المأمون) (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م)، قامت في اليمن دولة بني زياد[٥] وعاصمتها زبيد. وعند قيام هذه الدولة وما بعد ذلك، كانت هناك إلى جانبها دول أخرى هي الدولة الصليحية في صنعاء[٦]، ومن ثم دولة الأئمة الزيدية في صعدة[٧] ودولة بني يعفر وهكذا انقسمت اليمن، خاصة بعد ظهور دولة بني نجاح على أنقاض دولة بني زياد في زبيد وتهامة، سياسياً ومذهبياً، فلقد أصبح هناك تباين مذهبي فالمذهب الشافعي الذي ظهر في اليمن

سنة (٢٠٤هـ/٨١٩م) ابتدأ من المعافر والجند ثم انتشر إلى صنعاء شمالاً وعدن وجنوباً. واتخذ المذهب الاسماعيلي، حراز سنة (٢٦٨هـ/٨٨١م) لينتشر إلى المحويت وحجة وهمدان. أما المذهب الزيدي فكان أول ظهوره في صعدة سنة (٢٨٠هـ) على يد يحيى بن الحسين بن القاسم الرسمي ثم انتشر جنوباً حتى وصل إلى صنعاء وذمار. ولم تكن الخلافات بين هذه المذاهب، واسعة، وإنما اقتصرت على مسائل اجتهادية لم تكن تمس جوهر الدين الاسلامي بأي حالٍ من الأحوال[٨].

وإلى جانب هذا التباين المذهبي، فإن اليمن عرفت التعددية السكانية، فإلى جانب القبائل العربية اليمنية المعروفة نزلت في اليمن عناصر غير عربية، وخاصة في مدينة زبيد وسواحل تهامة ومن أبرز هذه العناصر الهنود ثم الأحباش، الذين استعان بهم حكام الدولة الزيادية وبدأوا بتربيتهم على إدارة الدولة وفي الجيش بعد استجلابهم وهم أطفال صغار، لذلك شعر هؤلاء بانتمائهم إلى اليمن واخلاصهم لها ولم يكن هذا غريباً عن السياق العام الذي كانت تنتهجه الدولة المركزية ببغداد وخاصة في الالتزام بمبدأ المساواة بين العرب وغيرهم من العناصر (الأعجمية) التي دخلت الدين الاسلامي[٩].

ارتبطت الدولة الزيادية بمركز الخلافة ببغداد، وظلت العلاقات السياسية والدينية قائمة وهو ما عبر عن نفسه في الدعاء للخليفة العباسي في خطبة الجمعة، وفي ارسال شيء من الزكاة إلى مركز الخلافة. وقد انتهج حكام هذه الدولة نهج الخلفاء العباسيين في مجال الاعتماد على العناصر غير العربية في الجيش والادارة، فأخذوا يجلبون العبيد من بلاد الحبشة ويقومون بتربيتهم وتدريبهم داخل القصور، وبمرور الزمن يعمدون إلى تكليفهم بالمناصب والمسؤوليات القيادية، وطبيعي أن يتطلع هؤلاء إلى السلطة، ففي أواخر عهد حكم بني زياد، وفي ظل حكم الحسين بن سلامة الزيادي (توفي ٤٠٢هـ/١٠١١م) استأثر مولى من العبيد اسمه مرجان بالسلطة، وكان قد تولى الوزارة، فصار له نفوذ كبيرة، وأخذ يعتمد على أنصاره من العبيد ومن هؤلاء عبدان من الحبشة، "رباهما صغيرين وولّاهما كبيرين" أحدهما اسمه (نفيس) وقد عهد إليه مرجان بـ (تدبير الادارة العامة) وثانيهما اسمه (نجاح) وتولى أعمال الكدري والمهجم ومور[١٠].

وبعد وفاة الحسين بن سلامة الزيادي، انتقل الحكم إلى طفل من آل زياد اسمه ابراهيم. وقد كفلته عمته (هند بنت أبي الجيش الزيادي)، وكانت من النساء اليمنيات الشهيرات، لذلك

سرعان ما غدت صاحبة الكلمة الأولى والسلطة الحقيقية في الدولة[١١]. ولكن مرجان لم يرض بذلك، إذ بدأ يتآمر عليها خاصة بعد أن شعر بميلها إلى نجاح ومكاتبتها اياه. وقد خطط مرجان لإلقاء القبض عليها وعلى ابن أخيها. يقول صاحب كتاب (قرة العيون بأخبار اليمن الميمون) أن نفيس "كان ظلوماً غشوماً، وكان نجاح رؤوفاً رحيماً، وكان مولاهما مرجان يفضل نفيساً على نجاح، وابن زياد وعمته يفضلان نجاحاً، فأغرى بهما نفيساً سيدهما مرجان فقبض عليهما وسلمهما إلى نفيس فبنى عليهما جداراً سنة ٤٠٧هـ/١٠١٦م وهما قائمان ينشدانه الله حتى ختمه عليهما فكان ذلك آخر العهد بهما"[١٢].

لما قتل نفيس مولاه، ركب المظلة، وضربت السكة باسمه، وكان نجاح يومئذ غائباً عن زبيد، وقد قرر مواجهة نفيس و"استنفر الناس وتجهز لحربه وقصده إلى زبيد بجموع عظيمة"[١٣]. أما نفيس فقد استعد للمواجهة ودارت بينهما وقائع منها يوم رمع، ويوم فشال على نجاح، ومنها يوم العقدة على نفيس ومنها يوم العرق وفيه قتل نفيس على باب زبيد[١٤] وخسر الفريقان قرابة خمسة آلاف قتيل وجريح، ودخل نجاح مدينة زبيد في ذي القعدة سنة (٤١٢هـ/١٠٢١م) "فقبض على مرجان وسأله عن ما فعله بمولاه وعمته، فقال هما في هذا المكان فأخرجهما نجاح، وصلى عليهما وبنى عليهما في العرق مشهداً، وجعل مرجان مكانهما وبنى عليه حياً وأمر بإحضار جثة نفيس فجعلت عند مرجان فبنى عليهما الجدار حتى ختمه"[١٥].

سيطر نجاح على زبيد، وركب المظلة، وضرب السكة باسمه، وكاتب أهل العراق وبذل لهم الطاعة ففوضوا إليه النظر العام في الجزيرة اليمنية وتقليد القضاء لمن يراه أهلاً[١٦]. ونظير موقفه الموالي للخلافة في بغداد، فقد كرمه الخليفة العباسي القادر بالله (٣٨١-٤٢٢هـ/٩٩١-١٠٣١م) بلقب (المؤيد نصير الدين)، وأصدر مرسوم النيابة الخلص وبذلك أضفى الشرعية على حكمه[١٧].

كان نجاح ينتمي إلى قبيلة الجزل الحبشية، ومن بطن يعرف بـ (السحرتيون). وقد تمتع بشخصية قوية، وعرف باللين والعدل والرأفة، وقد تقلد مناصب عديدة في الدولة الزيادية منها (انظر السراي)[١٨]. وقد أشار خير الدين الزركلي[١٩] إلى شخصية نجاح قائلاً بأنه "يعد من الدهاة الشجعان، نشأ في عهد امارة الحسين بن سلامة وحدثت فتن ظهرت فيها كفايته وأمانته واخلاصه، وكثر عليه المتغلبون والخارجون، واشتدت الحروب في أيامه فخرج ظافراً متمكناً".

بد أن سيطر الملك نجاح على زبيد توجه نحو سهل تهامة، وتمكن من اخضاعه، ثم أسرع لتوطيد سلطته على اليمن والقضاء على شيوخ القبائل والأمراء الذين سبق لهم الاستقلال في مناطق مختلفة. وقد استغرق ذلك منه قرابة أربعين سنة، وهي فترة حكمه. ضم عسير وصنعاء وعدن وحضرموت وبذلك أصبحت الدولة النجاحية تضم حدود اليمن الكبرى كلها. ولم يمنع هذا نجاح وحلفائه من مواجهة تحديات كبيرة كان من أبرزها التحدي الذي مثلته الدولة الاسماعيلية الأولى التي تأسست في اليمن وعرفت باسم (الدولة الصياحية)[٢٠].

الصراع النجاحي- الصليحي:

حينما قامت الدولة الفاطمية، في بلاد المغرب، تحمل أبناء اليمن أمثال (ابن فضل) و(ابن حوشب) مسؤولية نشر الدعوة الاسماعيلية في اليمن والبحرين واليمامة ومصر والهند[٢١]. ولئن تعرضت الدعوة الاسماعيلية في اليمن إلى بعض الصعوبات بسبب التنافس بين الدعاة، فإن الدعوة سرعان ما تجددت وراجت على يد (علي بن محمد الصليحي) الذي تفقه في أصول المذهب الاسماعيلي وعمل على نشره. ولم تأتِ سنة (٤٥٥هـ/١٠٦٢م) إلا وكانت الدعوة الاسماعيلية قد انتشرت في أرجاء مختلفة من اليمن. ويشير الاستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن[٢٢] إلى أن الصليحي هذا كان سنياً وقد شغل أبوه مناصب قضائية، لكن ابنه سرعان ما تحول إلى المذهب الاسماعيلي وقد كتب إلى الخليفة المستنصر الفاطمي في مصر يستأذنه في إظهار الدعوة الاسلامية في اليمن فأذن له وقد شمّر عن ساعد الجد وأخذ ينتقل في البلاد داعياً إلى الامام الفاطمي، وكان علي الصليحي بعد أن سيطر على صنعاء واتخذها عاصمة لدولته الجديدة أن يحكم اليمن باعتباره نائباً عن الخليفة الفاطمي، وكان الفاطميون ينظرون إلى الصليحيين نظرتهم إلى كبار رجال دولتهم وقد استطاع الصليحي أن يجمع اليمن تحت لواء واحد.

كتب عمارة اليمني[٢٣] عن الدولة الصليحية يقول: "لم يقع لأحد فيمن ملك اليمن ما وقع لعلي بن محمد الصليحي، فإنه استولى على اليمن سهله وجبله، وشماله وجنوبه، وشرقه في مدة يسيرة بعد أن قهر ملوكه". وكان (علي الصليحي) ادارياً ممتازاً، وأدخل كثيراً من وجوه الاصلاح في بلاد الحجاز، فخصص أموالاً وفيرة للبيت العتق، وتشجيع موسم الحج، وأحسن معاملة الناس ونشر العدل بينهم واستمالهم إليهم وأثر عنه قوله: "انصف المظلوم، وأقمع الظالم"[٢٤] ولكن

الدولة الصليحية اصطدمت بالدولة النجاحية وقد مر الصراع بينهما بمراحل عديدة استغرق سنوات طويلة، وانعكس سلبياً على أوضاع اليمن السياسية والاقتصادية والاجتماعية وخاصة في مجال استنزاف امكانات البلد وتعرضه لمشاكل عديدة.

مراحل الصراع النجاحي–الصليحي:

أظهر علي بن محمد الصليحي في المرحلة الأولى من الصراع، الطاعة للملك نجاح، فقد كان الصليحي يتودد إليه ويرسل له الهدايا[٢٥]. يقول صاحب قرة العيون: "كان الصليجي يخاف نجاحاً صاحب زبيد، وكان يتلطف له ظاهراً وهو يعمل على الايقاع به وقد تم له ذلك حين نجحت جارية جميلة أهداها الصليحي لنجاح سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠ من أن تدس السم له"[٢٦].

وتبدأ عندئذ مرحلة جديدة من الصراع، بعد مقتل نجاح وتولى الحكم من بعده مولى له اسمه كهلان، حيث أن أولاد نجاح كانوا صغاراً وقد استمر الأمر هكذا قرابة ثلاث سنوات، إذ لم يلبث علي بن محمد الصليحي أن أزال حكم بني نجاح فهرب ابنه سعيد المعروف بـ (الأحول) وأخوته إلى جزيرة دهلك سنة (٤٥٥هـ/١٠٦٣م)[٢٧]. وقد أدخل الصليحي زبيد وأناب عليها شقيق زوجته (أسعد بن شهاب) وذلك سنة (٤٥٦هـ/١٠٦٣م) وقد اتسمت فترة حكم ابن شهاب هذا بالتسامح واللين، فاستفاد من ذلك سعيد بن نجاح، فعاد سراً إلى زبيد وبدأ يجمع من حوله الأنصار حتى بلغوا قرابة سبعين مقاتلاً. كما طلب من أخيه جياش الحضور إلى زبيد، فحضر مصطحباً معه من أنصاره قرابة ٤٠٠ مقاتل[٢٨].

عند المهجم جرت في ١٢ من ذي القعدة سنة (٤٥٩هـ/١٠٦٦م)، معركة كبيرة بين سعيد الأحول وأخيه وأنصاره من جهة، والصليحي وأخيه عبد الله من جهة أخرى. وقد تفرق جيش الصليحي وانضم الكثيرون إلى جيش سعيد وأخيه. وقد قتل الصليحي في المعركة، وبعد هزيمة الصلحيين، عاد الأمر في اليمن إلى بني نجاح "وامتلأت صدور الناس هيبة من أول ملوكهم وهو سعيد بن نجاح"[٢٩].

كب جياش[٣٠] عن (معركة ذي القعدة) يقول: "لا أنسى انتصاب رأس الصليحي في عود المظلة، وقراءة المقرئ: قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير، انك على كل شيء قدير".

وبعد ثلاثة أيام من المعركة، دخل سعيد بن نجاح، زبيد في ١٦ ذي القعدة (٤٥٩هـ/١٠٦٦م) ورأى الصليحي وأخيه أمام هودج اسماء بنت شهاب زوجة الصليحي وأم المكرم، فأنزلها دار شخار ووكل بها من يحرسها. وعمد سعيد لتعزيز سلطته، ورفد جيشه بمقاتلين جدد من الأحباش. ويقول صاحب المفيد في هذا الصدد: "واستوثق الأمر بتهامة لسعيد، وبعث بالأموال إلى بلاد الحبشة من اشترى له عشرين ألف عبد"(٣١).

دخل الصراع النجاحي–الصليحي، المرحلة الثالثة حينما سألت أسماء بنت شهاب، سعيد بن نجاح أن يسمح لها هي ومن معها من النساء بالعودة إلى صنعاء فرفض. وقد أشارت المصادر إلى أن سعيد نصب رأس زوجها وأخيه قبالة طاق الدار التي أنزلت فيها، وبقيت في الأسر ثمانية أشهر وقيل سنة، ثم أرسلت سراً إلى ابنها المكرم، تقول: انها قد حملت من سعيد، ولم يكن سعيد قد رآها قط، وإنما أرادت أن تثير حفيظته وحفيظة أنصاره، ولما وصلت الرسالة، أقرأها ابنها الناس وهو على المنبر فضجوا بالبكاء، وقرروا القتال، واتجهت جموعهم وقدرت بثلاثة آلاف فارس غير الراجل نحو زبيد، واصطدم الطرفان عند باب المجرى إلى القبلة. وكان جيش سعيد يتألف من عشرين ألف مقاتل، وانتهت المعركة بهروب سعيد، وسيطرة قوات المكرم على زبيد. وقد أمر المكرم بإعادة خاله أسعد بن شهاب إلى ولاية زبيد سنة (٤٦٠هـ/١٠٦٧م) ورجع بأمه إلى صنعاء(٣٢).

بعد عودة المكرم إلى صنعاء، رجع سعيد بن نجاح ثانية إلى زبيد، وسيطر عليها وعلى تهامة وسبأ، فابتدأت المرحلة الرابعة من الصراع، وفي سنة (٤٧٩هـ/١٠٨٦م) توفيت أسماء بنت شهاب بصنعاء، فتولت زوجة المكرم السيدة أروى بنت أحمد الصليحي السلطة وتمكنت من استخدام الحيلة وتكوين التحالفات المضادة لآل نجاح ونجحت في استعادة السيطرة الصليحية على زبيد وذلك بعد مقتل سعيد سنة (٤٨١هـ/١٠٨٩م) وتفرق أولاد جناح وهروب جياش بن نجاح نحو الهند. وكانت زوجة سعيد (أم المعارك) معه عندما أطبقت عليه جيوش الصليحيين، وقد أنزلتها السيدة أروى بغرفة وجعلت رأس زوجها أمام طاقتها وقالت: "ليت لك عيناً ترى يا مولاتنا أسماء، رأس الأحول أمام زوجته أم المعارك"(٣٣).

جهود جياش بن نجاح ودوره في استعادة السلطة على زبيد:

أقام جيش بن نجاح ووزيره قسيم الملك أبو سعيد خلف بن ابي الطاهر الأموي قرابة ستة أشهر في الهند ونقل لنا المؤرخ عمارة اليمني أخبار هربه وتكيفه لأحوال الهند وعادات أهلها من اطالة الشعر والأظافر وستر احدى عينيه بخرقة سوداء. ويوضح جياش نفسه كيفية عودته إلى (زبيد) متنكراً وتصنته على أخبارها وأحوال الناس فيها ومن ثم نجاحه في العودة إليها وحكمها بعد أسر أميرها أسعد بن شهاب وذلك بمساعدة أهالي زبيد المقاتلة من العبيد الأحباش الذين قدر عددهم بنحو خمسة آلاف مقاتل يقول عمارة اليمني: عندما عاد جياش إلى زبيد، نشرت المصاحف، وابتهلت له الرعية، وظهر الفقهاء. وكانت عودة جياش إلى زبيد وحكمه فيها سنة (٤٨٢هـ/١٠٨٩م) واستمراره حتى وفاته في شهر ذي الحجة سنة (٤٩٨هـ/١١٠٥م)[٣٤].

وصف جياش بن نجاح بأنه كان ملكاً، ضخماً، شهماً، شجاعاً، جواداً، كريماً، وقوراً، حليماً[٣٥]، وقد لقب بـ (الملك المكين نصير الدين أبو الطامي جياش بن نجاح اليماني)[٣٦]. وكان أديباً شاعراً له ديوان شعر. كما عرف بأنه مؤرخ متميز له كتاب بعنوان (المفيد في أخبار زبيد) والكتاب، كما أشارت إلى ذلك الكثير من المصادر لا يزال مفقوداً منذ زمن بعيد[٣٧]. وقد أسهب المؤرخون في ذكر تفاصيل خطته للعودة إلى زبيد والسيطرة عليها واعادة تكوين الدولة النجاحية، ويبدو أنها كانت خطة محكمة استفاد منها من ابتعاد المكرم عن ادارة شؤون دولته لمرضه، وترك الأمور إلى زوجته السيدة أروى بنت أحمد وقد ذكر جياش في تاريخه أن علي بن ألقم وزير الصليحي أسعد بن شهاب، قد عاونه في اعلان الثورة في زبيد والاتفاق على موعد محدد واشارة متميزة، وهي ضرب الطبول وفي الموعد انطلقت الثورة، وخرج الرجال من مخابئهم وساعدهم أهالي زبيد في الهجوم علي (الحامية العسكرية الصليحية) و(قصر الامارة) وتم اعتقال الوالي أسعد بن شهاب وقرر بعدها الملك جياش اطلاق سراحه "لأنه أحسن السيرة لآل نجاح وعبيدهم أثناء ولايته لزبيد"[٣٨].

المرحلة الخامسة من الصراع-النجاحي-الصليحي:

بعد وفاة الأمير الصليحي المكرم سنة (٤٨٤هـ/١٠٩١م)، أسندت الدعوة والسلطة إلى الأمير أبي خمير سبأ بن أحمد الصليحي. وفي عهده تبادل النجاحيون والصليحيون السيطرة

على تهامة، لكن جياش أراد أن يعزز مركزه ضد الصليحيين فطلب من مركز الخلافة ببغداد مساعدته فأرسلوا إليه حملة عسكرية تضم قرابة ألف فارس معظمهم من الغز السلاجقة[٣٩].

ان سبب استغاثة جياش بالخلافة العباسية يرجع إلى ازدياد نفوذ الصليحيين في اليمن وتفاقم خطرهم على مستقبل الدولة النجاحية. هذا فضلاً عن رغبته في تحقيق التوازن بين المقاتلين الأحباش والغز الأتراك، لهذا فقد اقتطع الغز، لقاء عملهم هذا (وادي ذؤال)[٤٠]. وثمة سبب ثالث وهو رغبة جياش في الاستفادة من دعم العباسيين ضد النفوذ الفاطمي الذي أخذ بالانتشار في اليمن. وقد استطاع جياش أن يصد الخطر الصليحي بمساعدة قائده ريحان الكهلاني مولى بني نجاح الذي خاض معركة حاسمة سميت بمعركة الكظائم قرب باب زبيد وكان إلى جانب الكهلاني قادة آخرون أبرزهم الشريف يحيى حمزة، والأمير يحيى بن غانم السليماني. كما استنهض المخلاف السليماني فشاركت إلى جانب النجاحيين وبعد هذه المعركة التي جرت سنة (٤٨٠هـ/١٠٨٧م) لم يعد للصليحيين موطأ قدم في تهامة. وفي الوقت نفسه أخضع الملك جياش، بني زريع ملوك عدن الذين سرعان ما اعترفوا بزعامته عليهم. وقد أبقى السيدة أروى، زوجة المكرم الصليحي في منطقة (تعز) فظلت تحملها معترفة بسلطة آل نجاح إلى أن توفيت سنة (٥٣٢هـ/١١٣٧م)[٤١].

توفي الملك جياش في شهر ذي الحجة سنة (٤٩٨هـ/١١٠٤م) وتولى الحكم من بعده ولده أبو منصور فاتك[٤٢]. وفي بداية أمره اصطدم بأخويه ابراهيم وعبد الواحد، لكنه استطاع اعتقالهما. ولعل من أبرز ما تميزت به فترة حكمه استكثاره من الجند الأحباش، واستمراره في اخضاع امراء اليمن، وسعيه لإنعاش الحياة الاقتصادية وتقريبه للعلماء والشعراء واغداق الأموال عليهم[٤٣]. وقد توفي سنة (٥٠٣هـ/١١٠٩م) تاركاً ولده المنصور وهو طفل صغير فكفله عبيد أبيه وعندما اسمع عمه (ابراهيم) بذلك جمع أنصاره واتجه نحو زبيد. أما عمه الآخر عبد الواحد فقد أسرع كذلك للاستحواذ على السلطة ودار الصراع عند أبواب دار الامارة الأمر الذي دعا (خواص الأمير) من عبيد المنصور لطلب مساعدة الحرة السيدة أروى بنت أحمد بذي جبلة والتي أمرت كِلا من المفضل بن أبي صلحب التعكر، ومسعود بن أبي المكرم الهمداني والي عدن للتحرك باتجاه زبيد وقد دارت معركة كبيرة كان من نتيجتها انتصارهما وهزيمة عبد الواحد وهكذا تمكن جماعة المنصور بن فاتك من العودة إلى زبيد عاصمة ملكة سنة (٥٠٤هـ/١١١٠م)[٤٤].

يقول الاستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن[٤٥] "ان السلطة الفعلية في عهد المنصور بن فاتك بن جياش كانت في أيدي الوزراء...ومنهم أنيس الفاتكي، وهو من الأحباس أيضاً وقد امتاز بالشجاعة، ولو أنه اتصف بالشدة، وقد أثرى هذا الوزير اثراءً كبيراً من الأموال التي استولى عليها بني نجاح، حتى أنه بنى قصراً عظيماً اتخذه داراً لإقامته، بلغ عرض كل قاعة من قاعاته ثلاثين ذراعاً، وعرض كل مجلس من مجالسه أربعين ذراعاً، وسك النقود باسمه، وأراد أن يفتك بالمنصور، ولكن المنصور دبر له كميناً وقضى عليه واستولى على أمواله وجواريه، ومن بينهن جارية تدعى (علم)[٤٦] تزوجها المنصور فولدت له فاتك الثاني ابن منصور الذي آل إليه الحكم...".

أوضاع زبيد السياسية بعد وفاة المنصور بن فاتك:

توفي المنصور بن فاتك مسموماً في حدود سنة (٥١٧هـ/١١٢٣م). وقد عاشت زبيد والتهائم اليمنية أوضاعاً سيئة بسبب الصراع الذي حصل على السلطة بين وزرائه وقادته أمثال الوزير (من الله الفاتكي) و(القائد أبو محمد سرور الفاتكي نسبة إلى فاتك) وكان الفاتك من منصور الثاني (٥٢١-٥٣١هـ/١١٢٧-١١٣٧م) طفلاً صغيراً عندما توفي أبوه، والفاتك هو ابن الحرة الصالحة (علم الحجاجة) وقد حكم الفاتك البلاد بمعاونة عبيد والده وأبرزهم (أبو منصور مفلح الفاتكي وقد تميز عهد الفاتك بظهور الكثير من محاولات التمرد على السلطة، هذا فضلاً عن اشتداد نشاط الاسماعيليين. ومن محاولات التمرد التي تمكن من قمعها، ما قام به عمه محمد بن فاتك في زبيد كما أن الفاتك قضى على الشريف غانم السيلماني في المهجم، وجابه الداعي الاسماعيلي سبأ بن أبي السعود، وكان من جراء هذه الحروب المتوالية ان اضطر إلى الاكثار من جلب الجند الأحباش واستخدامهم في توطيد الحكم ومواجهة التحديات[٤٧].

حين توفي الفاتك سنة (٥٣١هـ/١١٣٧م)، لم يكن له ولد يخلفه في الحكم، فاجتمع أنصاره من رؤساء الجند وقرروا اختيار ابن عمه فاتك بن محمد بن فاتك بن جياش والذي عرف بالفاتك الثالث (٥٣١هـ-٥٥٣هـ/١١٣٧-١١٥٨م) وكان والياً في تهامة[٤٨] وقد عرف بأنه "ضعيف العزم، قليل النظر في السياسة، منهمكاً في اللهو واللعب والفساد وتضييع المال في غير موقعه لذلك تولى قائد الجند (سرور) الذي سرعان ما اصبح صاحب السلطة الفعلية والكلمة العليا في البلاد قرابة عشرين عاماً"[٤٩].

الخاتمة:

توفرت لدى الدولة النجاحية، حين ظهورها عوامل عديدة ساعدتها على أن تحكم طوال فترة زمنية استغرقت قرابة (١٤٠) عاماً. ومن هذه العوامل: الموقع الجغرافي والتجاري والعلمي والثقافي لمدينة زبيد، لما كانت تمتلكه من ارث حضاري، وغنى اقتصادي[٥٠] كما حظيت الدولة بملوك أقوياء أبرزهم مؤسسها الأول (نجاح) ومؤسسها الثاني (جياش). وقد اشتهر بعض ملوكها بثقافتهم العالية وبإخلاصهم لليمن ووحدتها ومما ساعدهم على ذلك الانقسام السياسي والتنوع البشري والتعددية المذهبية لكن ظروف الضعف سرعان ما بدأت تظهر للعيان بعد وفاة الملك جياش الذي كان "مأمون القول والفعل مهتماً لأمور البلاد"[٥١] وقد أدى التنافس على السلطة بين القادة (الأحباش) وكذلك بين أبناء أسرة آل نجاح أنفسهم، إلى دخول الدولة في صراعات استنزفت امكانيات الدولة وأتعبت الناس. ولا يمكن أن ننسى الصراع الطويل الذي خاضته الدولة النجاحية مع الأمراء الصليحيون الذين ما انفكوا يناصبون آل نجاح العداء لأسباب سياسية ومذهبية. وثمة من يشير إلى أن القبائل العربية اليمنية لم تقتنع بحكم آل نجاح وظلت تنظر إليهم على أساس أنهم من العبيد الاحباش الطارئين على المجتمع اليمني. ولم تكن علاقات النجاحيين الخارجية بالكثير من القوى السياسية في اليمن جيدة، فعلى سبيل المثال اتسمت علاقاتهم ببني زريع في عدن بالعداء لأسباب عديدة لعل من أبرزها الاختلافات المذهبية التي كان لها دورها في تعميق الصراع والتنافس ومحاولة الطرفين فرض سيطرتهما على اليمن[٥٢].

لقد استمرت عوامل التدهور والضعف في جسم الدولة النجاحية وجاءت الضربة القاضية على يد علي بن مهدي الرعيني الذي كان من الخوارج وقاد حركة سياسية معارضة لدولة بني نجاح وتمكن من جمع اعداد كبيرة من الأنصار الذين صعدوا إلى الجبال واستقروا في (حصن الشرف). وبالرغم من محاولة السيدة علم أم الفاتك مقاومة تلك الحركة في سنة (٥٣٦هـ/١١٤١م) من خلال التقريب إلى علي بن مهدي إلا أن خطر المهديين سرعان ما أخذ يتزايد ويهدد الدولة النجاحية وخاصة بعد سلسلة الهجمات التي تعرضت لها زبيد والحصار الشديد الذي فرض عليها واضطرار أعداد كبيرة من سكانها إلى الخروج منها إلى المناطق المجاورة.

لقد استطاع علي بن مهدي الرعيني أن يدخل زبيد يوم ١٤ رجب سنة (٥٥٤هـ/١١٥٩م) وقد قتل الأمير فاتك بن محمد وانتهت بذلك دولة بني نجاح إلا أن الأمر لم يدم طويلاً للمهديين إذ سرعان ما تقدم الأيوبيون بقيادة شمس الدولة توران شاه الأيوبي، ليدخلوا اليمن تحت سيطرتهم وكان ذلك في التاسع من شوال سنة (٥٦٩هـ/١١٧٤م)، فبدأت عندئذ حقبة جديدة في تاريخ اليمن.

الهوامش:

(١) الشهاري، محمد علي، مقاربة عامة لقضية الوحدة اليمنية عبر الماضي والحاضر والمستقبل، جامعة عدن، الندوة العلمية حول اليمن عبر التاريخ، عدن ٢٣-٢٥ سبتمبر/أيلول، ١٩٨٨، ١٧١-١٩٤.

(٢) للمزيد ينظر: الجنابي، خالد جاسم، تنظيمات الجيش العربي الاسلامي في العصر الأموي، بغداد، ١٩٨٤، دائرة الشؤون الثقافية والنشر، ٧-١٢.

(٣) التكوين التاريخي للأمة العربية، مجلة المستقبل العربي، بيروت، كانون الثاني، ١٩٨٠، ٣٩.

(٤) عبد العزيز الدواي، المرجع نفسه، ٣٩-٤٠.

(٥) للمزيد حول الدولة الزيادية ينظر: الشيباني، عبد الرحمن بن علي الديبغ (ت ٩٤٣ هـ)، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، القسم الأول، القاهرة، ١٣٧٤هـ، ١٤٧.

(٦) زبيد قصبة تهامة كانت مستقر لملوك اليمن وصفت بأنها بلد جليل، حسن البنيان، يسمونه (بغداد اليمن)، وبه تجار كبار وعلماء وأدباء، عليه حصن من الطين بأربعة أبواب. وقد اختطت زبيد سنة (٢٠٤هـ/٨١٩م) من قبل الوالي العباسي محمد بن زياد. وتمتعت زبيد بمركز جغرافي وتجاري وعلمي كبير طيلة فترة حكم الزياديين والنحاحيين، لكن دورها السياسي سرعان ما اتضاءل بعد اتخاذ مدينة تعز عاصمة للأيوبيين ومن بعدهم الرسوليين. مصطفى، شاكر، المدن في الاسلام حتى العصر العثماني، دار السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٨٨، ٢٧٨؛ ربيع، حسين، بحر الحجاز في العصور الوسطى، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الامام محمد بن مسعود، الرياض، ١٩٧٧، العدد ١، ٤١١.

(٧) للمزيد حول نشأة الدولة الزيدية وتطورها ينظر: المداح، أميرة علي، العثمانيون والامام القاسم بن محمد بن علي في اليمن، دار عكاظ للطباعة والنشر، جدة، ١٩٨٢، ١٧.

(٨) ابراهيم، محمد كرم، عدن دراسة في أصولها السياسية والاقتصادية (٤٧٦-٦٢٦هـ/١٠٨٣-١٢٢٨م)، بغداد، ١٩٨٥، ١٣٠.

(٩) للمزيد ينظر: خالد يوسف صالح: الدولة النجاحية في اليمن (٤١٢-٥٥٤هـ/١٠١٢-١١٥٩)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٨٥.

(١٠) الشيباني، عبد الرحمن بن علي الديبغ (ت ٨٦٦-٩٤٤هـ/١٤٦١-١٥٣٧م)، قرة العيون في أخبار اليمن الميمون، د.ت، د.م، القسم الأول، ٢٣٢.

(١١) ناجي، سلطان، الحقوق الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمرأة في المجتمع اليمني، مجلة المؤرخ العربي، ع ١٤، ١٩٨٠، ٦٤.

(١٢) الشيباني، قرة العيون، المصدر السابق، القسم الأول، ٣٣٢-٣٣٣.

(١٣) المصدر نفسه، القسم الأول، ٣٣٣.

(١٤) الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب (٣٦٠هـ/٩٧٠م)، صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، الرياض، ١٩٧٤، ١٢٢؛ الشيباني، قرة العيون، القسم الأول، ٣٣٣-٣٣٤.

(١٥) الشيباني، المصدر نفسه، القسم الأول، ٣٣٤.

(١٦) ابراهيم، المرجع السابق، ١٣٠-١٤٠.

(١٧) ابراهيم، المرجع نفسه، ١٤٠.

(١٨) حسن، حسن ابراهيم، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ٢١٠/٤. ان نجاحاً كان آخر نظار (وزراء) السراي في الدولة الزيادية.

(١٩) الزركلي، خير الدين، قاموس تراجم الاعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٩، ٣٢٤/٨.

(٢٠) للمزيد ينظر: رياض، زاهر، دولة حبشية في اليمن، المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، ١٩٥٩، ع ١٨، ١٠٩-١١٠.

(٢١) حسن، المرجع السابق، ١٩٧/٤.

(٢٢) حسن، المرجع نفسه، ١٩٨/٤.

(٢٣) المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وادبائها، لندن، ١٨٩٢، ٣٠٨.

(٢٤) حسن، المرجع السابق، ٣٠٨/٤.

(٢٥) رياض، دولة حبشية في اليمن، المرجع السابق، ١١٠.

(٢٦) الشيباني، قرة العيون، المصدر السابق، القسم الأول، ٢٤٦.

(٢٧) ابراهيم، محمد كريم، التواريخ المحلية لمدينة زبيد في اليمن، دراسة في منهاجها ومصادرها وأسس تأليفها، مركز دراسات الخليج العربي، البصرة، ١٩٨٢، ٥٨؛ صالح، المرجع السابق، ٦٠.

(٢٨) صالح، المرجع نفسه، ٦٠.

(٢٩) حسن، المرجع السابق، ٢١١/٤.

(٣٠) بن علي، نجم الدين عمارة (ت ٥٦٩هـ/١١٧٤م)، تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وادبائها، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، ط٢، القاهرة، ١٩٧٦، ٢٠٠-٢٠١.

(٣١) بن علي، المصدر نفسه، ٢٠٢-٢٠٣.

(٣٢) الوصابي، وجيه الدين الحبشي، تاريخ وصاب: الاعتبار في التواريخ والآثار، تحقيق: عبد الله محمد الحبشي، صنعاء، ١٩٧٩، ٣٦-٣٧.

(٣٣) الوصابي، المصدر نفسه، ٦٧.

(٣٤) الوصابي المصدر نفسه، ٤٩-٥٠؛ حسن، المرجع السابق، ٢٧/٤.

(٣٥) أبو مخرمة، ابو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بن احمد، (ت ٩٤٧هـ/١٥٤٠م)، تاريخ ثغر عدن، تحقيق: أوسكار لوفغرين، ليدن، ١٩٣٦، ٤٦/٢.

(٣٦) حسن، المرجع السابق، ٢١/٤.

(٣٧) ذكر الدكتور محمد كريم ابراهيم في كتابه التواريخ المحلية لمدينة زبيد دراسة تحليلية لكتاب الملك الجياش (المفيد في اخبار زبيد) وأشار إلى أهميته ومنهجه وأسس تأليفه وأسباب فقدانه وما وصل الينا منه، ويعد كتاب جياش أهم مصدر لدراسة تاريخ دولة بني نجاح في اليمن وقد اعتمد عليه عمارة اليمني.

(٣٨) الشيباني، قرة العيون، القسم الأول، ٣٤٣.

(٣٩) ابراهيم، المرجع السابق، ١٣٣.

(٤٠) وادي ذؤال ينبع كورة تهامة بالوادي الحصيب. الهمداني، صفة جزيرة العرب، ١١٩.

(٤١) رياض، المرجع السابق، ١١٣.

(٤٢) كان لجياش ستة أولاد هم: فاتك ومنصور وابراهيم وعبد الواحد والذخيرة ومعارك. للمزيد ينظر: الزركلي، الاعلام، ١٤٨/٢.

(٤٣) رياض، المرجع السابق، ١١٥.

(٤٤) رياض، المرجع نفسه، ١١٥.

(٤٥) حسن، المرجع السابق، ٢١١/٤-٢١٢.

(٤٦) ناجي، المرجع السابق، ٦٤.

(٤٧) للمزيد ينظر: الشيباني، قرة العيون، القسم الأول، ٣٥١.

(٤٨) الشيباني، المصدر نفسه، القسم الأول، ٣٥١.

(٤٩) الدجيلي، محمد رضا حسن، الحياة الفكرية في اليمن في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، بغداد، ١٩٨٥، ٥١.

(٥٠) للمزيد ينظر: رياض، المرجع السابق، ١١٧-١١٨-١١٩.

(٥١) ابراهيم، محمد كريم، عدن: دراسة في أحوالها السياسية والاقتصادية، مجلة كلية الآداب، بغداد، ١٩٧٩، ١٥٦-١٩٦.

(٥٢) للمزيد ينظر: بن اسير، محمد بن منصور، الجوهر الفريد من تاريخ مدينة زبيد، ٣٣-٦٢.